الائتلاف والاختلاف البلاغة والأسلوبية

د. علي عبدالرب

أستاذ البلاغة المساعد ، جامعة العلوم والتكنولوجيا

مقدمة :

إن علم البلاغة من العلوم التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً باللغة العربية منذ أن عرف الأقدمون اللغة وكان الارتباط وثيقاً قائماً على التأثر العاطفي عند المتحدث والسامع ، وكانوا يقولون البلاغة الإيجاز ، وأقيمت الأسواق الأدبية التي كانت تفاضل بين أرباب الفصاحة والبيان التي تُقيم على بالغ الأثر منها .

وبمجيء القرآن الكريم ، وتحدي الفصحاء والبلغاء .. ودخول الإعجاز وتحول الفهم من فهم لغة ، إلى ارتباط عقيدة ، ودين متعلق تعلقاً مباشراً بالقرآن الكريم .

ومن هذا المنطلق تم التعامل مع النص القرآني .. والذي من إيحاءاته تم التعامل مع النصوص الأدبية .

والأسلوبية علم غربي حديث كانت بداياته في أحضان الدراسات اللغوية الحديثة منذ سنة 1902م . مع (شارلز بالي) إن علم الأسلوب قد تأسست قواعده النهائية مثلما أرسى أستاذه (فيرد يناند دي سوسير) .

أهمية البحث :

تبرز الدراسة نقاط الالتقاء والافتراق بين البلاغة العربية والأسلوبية الغربية :

المنهج:

المنهج الذي اتبع في هذا البحث هو المنهج الوصفي الذي يوجز نقاط الائتلاف والاختلاف بين علمي البلاغة والأسلوبية .

تمهيد:

إن علم البلاغة علم يبحث في النصوص ويدرس علاقاتها وصورها وزخارفها ، ومعانيها السطحية والعميقة .. كما هو شأن الأسلوبية معالجة النصوص ، "فقد كانت البلاغة في خطوطها العريضة فناً للكتابة وللتأليف في الوقت نفسه : إنها فن لغوي ، وفن أدبي وهاتان سمتان قائمتان في الأسلوبية المعاصرة " (1) ، والبلاغة هي أسلوبية القدماء ، وهو علم الأسلوب كما كان يمكن للعلم أن يدرك حينئذ ، ويتناسب التحليل المضموني للتعبير الذي تركته لتتبع الرسم البياني

والتركيب ... وأنها تستحق من بين كل العلوم القديمة اسم علم : فلسفة الملاحظات ، ورهافة التحليل ، ودقة التعريفات ، وصرامة التصنيفات تشكل دراسة منظمة لمصادر اللغة لا ترى لها مثيلاً في المعارف الإنسانية الأخرى لذلك الزمن .

أما الأسلوبية أسلوبية التعبير كما صممها (بالي) "فقد نشأت عن البلاغة القديمة ولكن بطرق جديدة ، ولذا فإن دراسة البلاغة للصور ما تزال راهنة لم تتجاوزها دراسة أخرى حتى يومنا هذا أو أنها لتحوي على مخزون من الملاحظات والتعريفات التي من شأنها أن جعل اللسان يعيد النظر فيها ويعمقها على ضوء المناهج الحديثة "(2) .

وإن الدرس اللغوي أظهر احتياجه الشديد لعلم يبسط تعقيداته ويسهل وعورته ، ويوضح روابط مفرداته ، ويجلي الصورة ، ويتذوق محسناته ، ويشرح مقاصد جمله ويخرج مقتضى الحال فيها .. ويصل إلى أحكام تفاضلية بين موضوعاته . حسن وأحسن وجيد ، وقبيح ، وفاضل ، ومفضول .

فظهرت الأحكام التأثرية التي نراها في محافل العرب الأولى والأسواق الأدبية الشهيرة ، وانبرى النابغة في بدايات حاكم يسلم الجميع بحكمه، "ويظهر(فاليري) إعجابه بالاستعمالات ، أو بالأحرى بهذا التعسف اللغوي الذي نضعه تحت اسم غامض وعام وهو الصور ويأتي لا أرى فيه شيئاً أخر سوى التراث المهمل لتحليل غير كامل كان القدماء قد قاموا به لدراسة هذه الظواهر البلاغية "(3) .

وإن مهمة الأسلوبية المعاصرة هي دراسة الأسلوب وتحليله والحكم على تأدية وظيفته التأثيرية من خلال استخدام أدوات التأثير الكتابية التي تستخدمها البلاغة، فمن مهمات الأسلوبية المعاصرة معالجة النص كما هي مهمة الدراسات البلاغية يقول بييرجيرو : " ونرى مهمة من مهمات الأسلوبية المعاصرة الدراسات البلاغية .. فالدراسات البلاغية تحتفظ مكانتها كاملاً في النقد الأدبي لأنه لا يمكن الحكم على أسلوب كاتب دون الأخذ بعين الاعتبار تلك الفكرة التي يأخذها هو نفسه عن الأسلوب "(4) .

يقول عبد السلام المسدي : " توفق المنهج الأسلوبي في حياض العمل النقدي سواء في ذلك ما اتجه صوب المعالجة والتطبيق أو نحا نحو التنظير"(5) .

إن البلاغة في بداياتها الأولى عبارة عن انطباعات نقدية أو قل ألوان نقدية تعني بالتأثير الناتج عن موقف شعري . ينتج عنه حكم بالإعجاب أو عكسه مبينا على التعليل لذلك الموقف الذي يمثل

البدايات الأولى للتنظير والتطبيق، "فإن علاقة البلاغة بالأسلوبية علاقة امتداد تقوم على التبادل في الموضوع والمنهج والمعالجة والتحليل"(6)، ولذلك فالصلة وثيقة بين البلاغة والأسلوبية أضحت في حكم الفرضيات المسلم بها والتي تعد في غنى عن الاستدلال عليها .. والبلاغة والأسلوبية لا تعدو أن تكون جزءاً من أنموذج التواصل الحضاري .

تاريخ البلاغة :

إن البلاغة قد تأسست وظهرت على أيدي المؤسس أرسطو وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بداية بالخطابة .. حيث اشترط الفصاحة لتأثير الخطيب الذي يراد من خطابه الإقناع والتأثير . يقول (جورج مو لينيه) : " إن الأب المؤسس هو أرسطو ..وترتبط بالمحاجة : التطبيق الملائم له هو في الخطابة – الفصاحة – الذي يهدف إلى الإثبات والإقناع بواسطة الخطاب"(7).

إن البلاغة التي أسسها أرسطو أخذت حظاً وافراً من الاهتمام والدرس والمتابعة .. وظهرت لنا البلاغة العربية متزامنة مع اللغة العربية ويمكن أن تقسم إلى أربعة محاور :

الأول : النشأة والميلاد : حيث كانت النشأة مقتصرة على الانطباعات التأثيرية للعلماء في بداية الأمر ثم ازدهرت عندما ارتبطت بالأدب والقرآن الكريم فأخذت بعدين : الأول : البعد اللغوي الفكري القومي .

والآخر : البعد العقدي الديني . وهو ما ظهر على أيدي العلماء الأوائل : (الباقلاني ، الجرجاني ، الزمخشري) .

الثاني : التقعيد والقولبة كما جاء على أيدي (القزويني ، السكاكي ، وشُراح المفتاح) .

الثالث : مرحلة ازدهار وتطور البلاغة حيث ظهرت ثلاثة : مذهب أدبي للتعامل مع البلاغة مثل :(ضياء الدين ابن الأثير ، وحازم القرطاجني) ومذهب كلامي متأثر بالمنطق وعلم الكلام (كالرازي) والمذهب الثالث : وهو الذي جمع بين المذهب الأدبي والكلامي (كالعلوي صاحب كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) .

الرابع : وهو المحور الذي تم فيه تناول البلاغة بالدرس والتحليل والجمع بين القديم والجديد والمواءمة بينهما للخروج بمصطلحات الدرس البلاغي الحديث.

والمتتبع للدرس العربي بتخصصاته المختلفة بما فيها البلاغة يجد أن الدرس يتتبع الشاهد اللغوي من أقوال العرب وبلهجاتها وتقعد القواعد بناء على ذلك .. ولربما وجد في القرآن الكريم ما يكفي الدارس من اللهث وراء البحث عن الشاهد والدليل من غيره .. وإننا لنجد في الشاهد والدليل

القرآني ما يغني من النظر إلى غيره وجعله أول واقوي الشواهد والاستدلالات دون إغفال لغيره .

وإن البلاغة قد تمحورت موضوعاتها لتصل إلى ثلاثة محاور رئيسية تشكل علم البلاغة :

علم المعاني ، علم البيان ، علم البديع .

ولكل محور منها مصطلحاته وموضوعاته التي يرتبط بعضها ببعض .

تاريخ الأسلوبية :

منذ سنة 1902م تأسست قواعد علم الأسلوب علي أيدي (شارلزبالي) رائد الأسلوبية على إثر محاضرات أستاذه (فيرد يناناددى سوسير) التي ألقاها لطلابه ضمن سلسلة محاضرات في الدراسات اللغوية الحديثة .. يقول عبد السلام المسدي : " منذ سنة 1902م كدنا نجزم مع (شارل بالي) أن علم الأسلوب قد تأسست قواعده النهائية مثلما أرسى أستاذه (فيرد يناناددي سوسير) أصول اللسانيات الحديثة فإذا بروح الوثوقية كما سنه(بالي) تأتي علية أطوار من النقد والشك التي عدت أراء باعت علم الأسلوب تستفز اليوم كثيراً من الإشفاق أن نحن مخضناها بمجهر الرؤية الحديثة ... وهذا الشطط العقلاني في منهج البحث هو الذي استفز ردود الفعل المضادة " (8).

ونتيجة لهذه الردود المضادة فقد وجدت أسلوبيات وليس أسلوبية واحدة وهي :

الاتجاهات الأسلوبية كما أوردها (يوسف وغليسي)(9)

- عند (برياق جيل) ثلاث أسلوبيات .
  - أسلوبية اللغة : (يمثلها شارل بالي) .
  - أسلوبية مقارنة : (من شأنها أن تقتدي قاعدة المنهج في الترجمة) .
  - أسلوبية أدبية (يمثلها جاكسون بيار غيرو..)

○ بيار غيرو فيميز بين

- الأسلوبية الوصفية ... وأسلوبية التعبير : (وهي أسلوبية الآثار ، والبديل لعلم الدلالة تدرس علاقات الشكل بالفكر مثلما تدرس الأبنية ووظائفها داخل النظام اللغوي)
- الأسلوبية التكوينية ، وتشبه النقد الأدبي، تدرس التعبير في علاقته بالمتكلم معتمدة بظروف الكتابة ونفسية الكاتب وتمثلها أحسن تمثيل الأسلوبية المثالية لدى (ليوسبيتزر) .

○ اسيفر يميز بين .

- أسلوبية اللغة التي تقوم على التحليل والجرد لمجموع السمات المتغيرة (المقابلة للسمات التي يستوحيها ما فوق اللغة المتعلقة بلغة معطاة) فتقول : الأسلوبية الفرنسية ، أو الألمانية ، أو الانجليزية .

- أسلوبية أدبية : وتقوم على تحليل الوسائل الأسلوبية المحتملة المتعلقة بالممارسات الأدبية ، منفصلة الأعمال الأدبية وقد استحالت إلى أسلوبية الانزياح (وأسلوبية سيكولوجية)

أبرز نقاط الائتلاف بين البلاغة والأسلوبية :

إن علم البلاغة مرتبط بالنقد وكانت البدايات عبارة عن ألوان نقدية للتمييز بين البليغ من القول . وتطورت العلاقة بينهما ولا يمكن للنقد أن يغيب البلاغة عن ميدانه ومصطلحاته . أخذاً وعطاءً.

وذلك شأن الأسلوبية يقول المسدي : " من حقائق المعرفة أن الأسلوبية يرتبط باللسانيات ارتباط الناشئ بعلة نشوئه ، فلقد تفاعل علم اللسان مع مناهج النقد الأدبي الحديث حتى أخصبه فأرسى معه قواعد علم الأسلوب ، وما فتئت الصلة بينهما أخذاً أو عطاءً "(10) .

البلاغة مرتبطة بعلوم اللغة ارتباطاً وثيقاً فميدانها الأدب والنصوص النثرية والشعرية الفصيحة غير الملحونه الجارية على أصول الصرف العربي وقواعد النحو ... الخ . وهذا هو شأن الأسلوبية " فالأسلوبية علم لساني يعني بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة "(11).

إن البلاغة تدرس في الكلام مقتضى الحال ، وتدرس اعتبارات خروج الكلام عن مقتضى الحال . لاعتبارات كثيرة كالتعجب والإنكار والتهكم والسخرية وغيرها .

وهذا ما تتناوله الدراسات الأسلوبية فالأسلوب : " ظاهرة تلازم تحقق العملية اللغوية المحكية منها أو المكتوبة تتكشف بدءاً من مستوى الجملة وتراكيبها المختلفة كما هو في أحوال الاستفهام والتعجب والتهكم والسخرية وغيرها .." (12) .

إن وظيفة البلاغي في العمل البلاغي هي الكشف عن غموض النص وقراءته بغية كشف أستارة وتبسيط أفكاره بأدوات محدودة وقد قال المسدي في الأسلوبية : " بيد إن الأسلوبية ووظيفتها ، لا يتسنى لأحد أن يناقضنا إن نحن أكدنا إن الكاتب لا يفصح عن حسه ، ولا عن تأويله للوجود إلا إذا مد بمعاول ملائمة وليس للأسلوبي من عمل سوى فحص تلك المعاول" (13) .

إن البلاغة تتعامل مع الصورة للدلالة على معاني كثيرة تتمثل في التشبيه ، والاستعارة ،

والكناية ، والمجاز ؛ لتقرأ المعلومة بصورة مجسدة حية لأشياء معنوية . وهذا الأمر يشغل مساحة كبيرة في الأسلوبية .. يقول عبادي : " إن ما ذكر عن الصورة في البلاغة .. يدل على صورة كافية للدلالة على أنها تشغل جانباً كبيراً من الظاهرة في الأسلوبية "(14) .

إن مدار العلم ومبدأه في البلاغة هو الأسلوب ، وكذلك في الأسلوبية " وتحديد ذلك في منظور مركب غير مباشر ، ومداره تحديد العلم وموضوعه ، ألا وهو الأسلوب ذاته "(15).

إن الأسلوبية على كثر ما قيل فيها أنها : تلاشت ، انتهت ، ماتت... والقائلين بعكس ذلك : أنها ماتت على أنقاض البلاغة ، وإنها الوريث لها .. فالمسدي يرى : " أن الأسلوبية امتداد للبلاغة وهي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت" (16).

والغرض من علم البلاغة إظهار التأثير للوصول إلى ابلغ مدى في التأثير وهذا هو شأن الأسلوبية.

ويتحقق ذلك من خلال بعدين كما يقول المسدي(17) :

البعد الأول : البعد اللساني لظاهرة الأسلوب وعن نوعية العلاقة الرابطة بين حدث التعبير ومدلول يحتوي صياغته .

البعد الثاني :

البعد الأدبي الفني للحدث البلاغي فإذا كانت عملية الإخبار علة الحدث اللساني أساسا ؛ فإن غاية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة . وتأتي الأسلوبية في هذا المقام لتتجدد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية ، وهذا ما يسمى في البلاغة الخبر والإنشاء .

أبرز أوجه الاختلاف :

إن أي علم لا يستقيم عوده بين العلوم ولا ينفرد بهويه تحده بالجمع والمنع بين إخوته إلا إذا ظفر بمادة في البحث لم يسبق إليها سابق ، أو اكتشف منهجاً مستحدثاً يتناول به مادة لم يسبق لعلم من العلوم إن تناولها بذلك المنهج . وعلم الأسلوب من ضروب الصنف الثاني (18) .

إن البلاغة قائمة على مقاييس معيارية للتعامل مع الموضوعات والحكم عليها سواء كان ذلك في الشكل أم المضمون . فهي علم معياري تعليمي .. قد لا يكون هذا محقق في الأسلوبية .

يقول يوسف وغليسي : " إن البلاغة علم معياري تعليمي يعتمد فصل الشكل عن المضمون في الخطاب ، بينما الأسلوبية علم وصفي تعليلي يرفض الفصل بين دال الخطاب ومدلوله "(19) .

إن البلاغة تتعامل مع نص موجود ولا تهتم بحالة قائله النفسية ودفائن اللاواعي لديه في حين إن

الأسلوبية تهتم بذلك، " تقتضيها الزيادة في معادلة المعرفة يستقطبها في الأمر الأدبي أسلوبه الذي لا يتميز بشيء سواه على التشريح الإخباري المفضي إلى كشف دفائن اللاواعي "(20).والمعايير التي تعتمد عليها الأسلوبية في الدراسة في سائر المستويات(21) :

1- المنظور الإحصائي : الاهتمام بالتكرار ، وهذا وارد في البلاغة كالتكرير، غير أنه ليس من المعايير الثابتة وإنما يأخذ حقه من التناول إذا وجد في النص . أما في الأسلوبية فتكرار العنصر أكثر من غيره أولى بالدراسة لأن تكراره يعني أنه سمة أسلوبية في النص.

2- بعد العدول : الخروج عن المألوف في استعمال اللغة إلى استخدام جديد يسمى الانزياح أو الانحراف .

3- مبدأ الاختيار : ابتغاء الوسائل اللغوية المناسبة من النظام اللغوي لتأدية المعنى والتعبير عنه .

أبعاد التفكير الأسلوبي الحديث :

- ❖ البعد الدلالي .
- ❖ البعد التعبيري .
- ❖ البعد التأثيري .

وهذه الإبعاد موضوعاتها في اللغة العربية غير مجال البلاغة إلا ما كان من معاني تتأولها تأولاً .

الدوائر الأسلوبية :(22).

1- الدوائر الفيلوجية : الأسلوبية المثالية ، وتركز على دراسة العمل الفني من الداخل وتعني بالخصائص النوعية للأعمال الفنية التي لا تقاس بسواها .

2- دائرة الانزياح الأسلوبي : ويعد معادلاً لمفهوم الأسلوب في الدراسات الشعرية .

3- دائرة الأسلوب بوصفة اختياراً : اختيار المفردات معنية من أعيان المفردات والتراكيب .

4- دائرة أسلوبية القارئ : وهي محصلة ردود أفعال عدد من المجيزين اللغويين تجاه النص .

أبرز النتائج (الخاتمة)

أ- نقاط الالتقاء :

1- أن الأسلوبية امتداد للبلاغة وليس وريثاً لها وان الأسلوبية قائمة على البلاغة أخذاً وعطاءً وليس على أنقاضها .

2- أن أساس نشأة الأسلوبية البلاغة والعلاقة لا تزال بينهما قائمة أخذاً وعطاءً .

3- أن البلاغة مرتبطة بعلوم اللغة كما هو شأن الأسلوبية مرتبط بعلم اللسان .

4- إن البلاغة مهتمة بسياق مقتضى الحال للكلام وكذلك الأسلوبية .

5- ليس للبلاغي إلا النظر في العمل الأدبي كما هو شأن الأسلوبي .

6- أن الصورة تشغل حيزاً في البلاغة وكذلك في الأسلوبية .

ب - أوجه الخلاف :

1- أن الأسلوبية ليست علماً جديداً في المادة العلمية ولا في المنهج .

2- أن البلاغة علم معياري تعليمي ، والأسلوبية علم وصفي تعليلي .

3- اختلفت الأسلوبية عن البلاغة في :

- **معايير دراسة المستويات .**
  - المنظور الإحصائي .
  - مبدأ العدول .
  - مبدأ الاختيار .
  - مبدأ التأليف .
- **أبعاد التفكير الأسلوبي الحديث :**
  - البعد الدلالي .
  - البعد التعبيري .
  - البعد التأثيري.

- **الدوائر الأسلوبية :**
  - الدائرة الفيلوجية .
  - دائرة الانزياح الأسلوبي .
  - دائرة أسلوبية القارئ .
- **مسميات الأسلوبية (تعددها وجمعها):**
  - تجمع أسلوبيات .
  - أسلوبية علم تراكيب الجمل .
  - أسلوبية التأثيرات .
  - الأسلوبية البنيوية .
  - أسلوبية العوامل .
  - أسلوبية البرغماتية الأدبية

الهوامش:

[1]- بيرجيرو . ترجمة د. منذر عياشي : الأسلوبية والأسلوب مركز الإنماء القومي لبنان . ص 16 .

[2]- المرجع السابق ص 17.

[3]- بيرجيرو . ترجمة د. منذر عياشي : الأسلوبية والأسلوب ص17 .

[4]- المصدر السابق، ص 17 .

[5]- عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب : الدار العربية للكتاب ط 1982م الطبعة الثانية ص20

[6]- مختار عطية : التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية مصر ط الأولى عام2005م ص 130 .

[7]- جورج مولينتيه . ترجمة بسام بركة : الأسلوبية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – لبنان – ط1/1999م ص37.

[8]- عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ، ص20.

[9]- د. يوسف وغليسي : مناهج النقد الأدبي ، جور للنشر والتوزيع الجزائر ط الأولى سنة 2007م ص 76 ، 77

[10]- الأسلوبية والأسلوب : ص 5 .

[11]- المرجع السابق ص 56 .

[12]- عدنان بن ذريل : النص الأسلوبية بين النظرية والتطبيق ، مركز اتحاد الكتاب العربي لبنان ط1/ 1999ص 44 .

[13]- عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ص 44.

[14] - شكري محمد عبادي : اللغة و الإبداع مبادئ علم الاسلوب العربي ط1 /1988م ص70 .

[15] - عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب ص27 .

[16] - المرجع السابق ص52.

[17] - الأسلوبية والأسلوب ص 35 ، 36 .

[18] عبدالسلام المسدي :الأسلوبية والأسلوب ، ص6,7

[19] مناهج النقد الأدبي ص 86 .

[20] - عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب . ص 73 .

[21] - أماني سليمان داود : الأسلوبية الصوتية ، دراسة في شعر الحسين بن المنصور الحلاج ، وزارة الثقافة – عمان – ط1 / 2002م ص29 ، 30 .

[22] - بشرى موسى صالح : المرآة الناقدة ، دار الكتب والوثائق بغداد ط1 /2001م انظر من 10- 14 .

المراجع

1- د. أماني سليمان داود : الأسلوبية الصوتية ، دراسة في شعر الحسين بن المنصورالحلاج ، وزارة الثقافة – عمان – ط1 / 2002م.

2- د. بشرى موسى صالح : المرآة الناقدة ، دار الكتب والوثائق بغداد ط1 /2001م.

3- بيرجيرو . ترجمة د. منذر عياشي : الأسلوبية والأسلوب مركز الإنماء القومي لبنان .

4- جورج مو لينتيه . ترجمة بسام بركة : الأسلوبية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – لبنان – ط1/1999م.

5- د. يوسف وغليسي : مناهج النقد الادبي ، جور للنشر والتوزيع الجزائر ط الاولى سنة 2007م .

6- د. شكري محمد عبادي : اللغة و الإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي ط1 /1988م .

7- د. عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب : الدار العربية للكتاب ط 1982م الطبعة الثانية .

8- د.عدنان بن ذريل : النص الاسلوبية بين النظرية والتطبيق ، مركز اتحاد الكتاب العربي لبنان ط1/ 1999.

9- د. مختار عطية : التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الاسكندرية مصر ط 1 عام2005م .